بيئة الحجاز وشعر الغزل اللاهي

الغزل اللاهي في مدن الحجاز

- عمر بن أبي ربيعة -

شغل العرب بعد ظهور الإسلام فترة من تاريخهم بالدين الجديد الذي أشرق في جزيرتهم، فأخرجها من عزلتها القديمة، ووصل بينها وبين الحضارات الأجنبية التي كانت تحيط بها، ومرّت السنون الأولى من هذه الفترة من تاريخهم وهم مشغولون بتثبيت دعائم الدين الجديد، ونشر كلمته في الآفاق، وصرفتهم الرسالة الكبرى التي عهد إليهم بها عن الحب ومشاكله.

حتى إذا ما قامت الدولة الأموية، وانتقل معها عرش الخلافة من الحجاز إلى الشام، بدأت مرحلة جديدة من مراحل الحب العربي تعد- بحق- أزهى مراحله والعصر الذهبي له، وشهدت الجزيرة العربية بعثاً جديداً لمدرستي الحب القديمتين: الحب اللاهي ومدرسة المتميين، أما المدرسة الأولى فقد بعثت في مدن الحجاز (مكة- المدينة- الطائف)، وأما المدرسة الأخرى فقد بعثت في البادية (بادية الحجاز ونجد) فقد توافرت لهاتين البيئتين في هذا العصر عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية أدت إلى ظهور هاتين المدرستين في تاريخ الحب عند العرب.

فمع أن حركة الفتوح الإسلامية الضخمة التي شغلت العرب كانت عاملاً من عوامل انتشار الإسلام في أرجاء العالم القديم، فإنها كانت أيضاً سبباً من أسباب الغنى والثراء للمجاهدين العرب الذين أحلّ الله لهم جزءاً كبيراً من غنائم الحرب، كما كانت عاملاً مؤثراً في حياة العرب الاجتماعية بما كانت تمنحهم من أسرى وسبايا، ومنذ أن بدأت هذه الحركة بدأ تغير اجتماعي واقتصادي يأخذان طريقهما إلى المجتمع العربي إلى جانب التغير الديني والسياسي اللذين كان الهدف الأول لها. فقد أخذت أموال الفيء وأسرى الحرب وسباياها تنهال على العرب فتغير من حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والخلقية وظهر هذا التغير في أقوى صوره في بيئة الحجاز، وأخذت مدن الحجاز الكبرى وخاصة مكة والمدينة، تتحول إلى شيء جديد فقد تحولت هاتان المدينتان إلى مدينتين متحضرتين، وبدأت تيارات الحضارة الأجنبية تأخذ طريقها إليهما في بطء أول الأمر، ثم في تدفق شديد بعد ذلك، والسبب

في هذه الاستجابة السريعة لهذه البيئة يرجع إلى أن مكة كانت مهد الأرستقراطية العربية من قريش كما أن المدينة كانت منذ فجر الإسلام السياسي حاضرةً للدولة الجديدة، فتدفقت الأموال على هاتين المدينتين مما كان يفيئه الله على المجاهدين المسلمين في فتوحهم العريضة وإلى جانب الأموال تدفقت أعداد ضخمة من الرقيق من أسرى الحرب والسبايا، ومع هؤلاء كانت تفد الحضارات الأجنبية التي أخذت تحول حياة الطبقة الأرستقراطية فيه التي كان هذا الرقيق يقوم على خدمتها إلى حياة جديدة.

(مال– رقيق– حضارة)

ومع قيام الدولة الأموية بعد تلك الفتن التي فرّقت الجماعة الإسلامية شيعاً وأحزاباً، وتحول حاضرة الخلافة من المدينة إلى دمشق، وانتقال مركز النشاط السياسي من الحجاز إلى الشام، كانت سياسة معاوية منذ أن آل أمر المسلمين إليه أن يباعد بين الحجاز والسياسة، وأن يشغل أهله عن نفسه بأنفسهم، فقد كان يدرك أن الحجاز– موطن قريش– ومهد الرسالة، ومستقر الدولة الإسلامية من أيام الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومركز خلافة الراشدين من بعده– يشكل خطراً على دولته الناشئة لما له من مكانة دينية ولما يتمتع به من زعامة روحية. ويدرك أن قريشاً خاصة وأهل الحجاز عامة لابد أنهم ضاقوا صدراً بانتقال مركز الدولة من بلادهم وأنهم لن يترددوا في العمل على إعادته إليها. فسلّط على أهل الحجاز سلاح الذهب، وانهالت الأموال على أهل الحجاز وتدفقت العطايا وسال الذهب بين أيديهم حتى يخطف أبصارهم عن التفكير في السياسة. فكانت هذه الأموال تضاعف ما ورثوه من مغانم الفتوح وما كسبوه من التجارة من أقدم العصور ويتضاعف مع الأموال هذه عدد الرقيق والجواري لتتحول مدن الحجاز إلى مدن على حظ كبير من الحضارة والترف والبذخ والنعيم.

ومع هذا الرقيق الأجنبي والجواري انتشر الغناء، وفتن به أهل الحجاز. وفتحت دُورُ المدينة ومكة لجماعات المغنين والمغنيات أبوابَها وأذانها وانسابت الأغاني والألحان تنفذ منها إلى قلوب الناس لتثير من حولها جواً رقيقاً ناعماً.

ومع هذه الموجة الغنائية الجارفة ظهرت موجة من اللهو.

فهذه الحياة الأرستقراطية المترفة الممعنة في الترف التي كان يحياها أشراف المدن الحجازية، وهذه الأموال التي كانت تتدفق عليهم بغير حساب، وهذا الرقيق الذي كان يقوم على خدمتهم، ويحمل عنهم أعباءهم، وهؤلاء الجواري اللائي كن يملأن عليهم حياتهم جمالاً، ويُشعن فيها فتنة وسحراً، وهؤلاء المغنون والمغنيات الذين كانت أغانيهم تتردد في كل مكان. ثم هذه الحرية وهذا الفراغ وهذا التعطل الذي فرضته السياسة، وحببته إلى قلوبهم- هذه كلها كانت تدفع بهم إلى ألوان من اللهو يشغلون بها أنفسهم، ويشعرون معها بوجودهم في مجتمع صاخب بأحداث سياسية.

ويبرز الحب من بين ألوان اللهو التي اتجه إليها المجتمع الحجازي في هذا العصر، فقد توافرت له العوامل التي ساعدت على بروز هذا اللون من ألوان اللهو فيه:

شباب فارغ متعطل إلا من أسباب الغنى والثراء، ونساء جميلات مترفات لا همّ لهن سوى الزينة والدلال، تجمعهما حياة على حظ من الحرية، وتصبّ في أسماعهما ليل نهار الأغاني المنتشرة من حولهما.

وكان طبيعياً في مثل هذا المجتمع وتحت تأثير تلك الظروف- أن ينشأ الحب اللاهي بين شباب الطبقة الأرستقراطية التي كانت تزخر بها مدن الحجاز. وتحولت حياة هذه الطبقة إلى قصة حب ضخمة، دارت فصولها في كل مكان حتى في الأماكن المقدسة. ومع هذا الحب ظهر الغزل وشعراؤه ممن اتخذوا منه موضوعاً خصباً لفنهم يتغنون به ويسجلون أحداثه وأحاديثه، ويقصون أخبارهم مع صاحباتهم، ويصفون جمالهن وترفهن ودلالهن، ويصورون عواطفهم وعواطفهن وما يدور في نفوسهم جميعاً من مشاعر وانفعالات وأحاسيس.

(وتحول المجتمع الحجازي إلى شعر وحب وغناء)

وخير من يمثل هذا اللون من الحب والشعر في هذا العصر ثلاثة شعراء: عمر بن أبي ربيعة في مكة والأحوص في المدينة، والعرجي في الطائف.

وعمر هو الذي يمثل هذا اللون أصدق تمثيل سواء من الناحية الاجتماعية أو الفنية وخير من يمثله في تاريخ الشعر العربي كله.

وعمر بن أبي ربيعة:

هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة، فهو ينسب إلى جده، وينتهي نسبه إلى بني مخزوم وهم بطن من أشراف قريش عرفوا منذ العصر الجاهلي بالثراء الواسع وكان أبوه من أغنى تجار مكة، وكانت قريش تسميه (العِدْل) لأنه كان يكسو الكعبة من ماله وحده سنة، وتكسوها قريش كلها سنة، فكأنه كان يعدل قريشاً كلها. وقد ولد عمر في سنة ٢٣ من أم اسمها (مجد) يمنية، ولم يكد يبلغ الثانية عشرة من عمره حتى توفي أبوه، فتولت أمه أمره ولم تدّخر وسعا في تهيئة كل أسباب الحياة المترفة له.

في مجتمع مكة المتحضر الجديد ظهر الشاعر. واستمتع بما استمتع به شباب مجتمعه من مُتُع في جو على حظ من الحرية الاجتماعية. ووهب حياته للحب. واتخذ منه متعته الكبرى. بل لقد كانت حياته قصة حب ضخمة متعددة الفصول والشخصيات لم يقف عند امرأة واحدة، وإنما تعددت صاحباته بصورة لا نجد لها مثيلاً في عصره. وكان كل شيء يهيء له ذلك شباب قلبه الدائم- جماله- غناه- أمه التي بالغت في الاهتمام به وتدليله وتزيينه- وعبيده وجواريه الذين أعانوه وحوّلوا حياته إلى ترف ونعيم وفراغ ومتعة ولهو وحب وغزل. ثم مجتمعه المتحضر المترف اللاهي وما يتردد فيه من غناء وموسيقا وشعر وبدع الحب.

وشعر عمر كله في الغزل، فهو لم يشارك في موضوعات الشعر الأخرى (مديح- هجاء) وهو موضوع ترك لنا فيه ديواناً ضخماً يدور كله حول هذا اللون من الحب.

وقد استطاع الشاعر أن يرسم في شعره صورة دقيقة معبرة عن حياة المجتمع الحجازي في العصر الأموي.

وصاحباته كثيرات من طبقة اجتماعية خاصة، هي تلك الطبقة الارستقراطية المبالغة في الترف والدلال والتي نالت حظاً من الحضارة والحرية. وليس في ديوانه غزل في الجواري الأجنبيات. فالمرأة في شعره هي الأرستقراطية العربية المنعمة التي تبالغ في العناية بجمالها وزينتها.

وأعجبها من عيشها ظلُّ غرفة وريانُ ملتف الحدائق أخضر

ووالٍ كفاها كلَّ شيء يهمها فليست لشيءٍ آخر الليل تسهرُ

فهي فتاة متحضرة تحيا حياة ناعمة في قصر تحيط به الحدائق الخضر. ومن حولها من يتولى أمورها فلا تشغل بشيء.

قالت ثريا لأتراب لها قُطُفٍ قمنُ نُحَييِّ أبا الخطاب عن كَثَب

فطرْنَ حداً لما قالت وشايعها مثلُ التماثيل قد موِّهْنَ بالذهب

يَرفُلْنَ في مُطْرفاتِ السوس أونةً وفي العتيق من الديباج والقصب

ترى عليهنَّ حَلْىَ الدُّرّ متسقاً مع الزبرجد والياقوت كالشهب

وهن إلى جانب ذلك– من أكرم الأسر العربية وأعرقها وكان حريصاً على التنويه بنسب صاحباته وكرم أصولهن.

بعيدةُ مهوى القُرْط إمّا لنوفلٍ أبوها وإما عبد شمسٍ وهاشمٍ

وتتكرر في شعره صورة المحبوبة الخائفة المذعورة المحاذرة وصورة العاشق المحتال المغامر، حتى يضفي على شعره مسحة من روح البداوة ومثالية الصحراء:

ضربوا حُمْرَ القباب لها وأحيطت حولَها الحُجَرُ

حولها حراس ذي شرف نوَّمٌ من طول ما سهروا

ووسيلة عمر الأساسية في تصوير هذه المغامرات، بل في شعره كله هي القصة فهو يعتمد عليها اعتماداً أساسياً في بناء قصائده وفي التعبير عن معانيه وأفكاره وعواطفه.

وقد دفعه هذا الاتجاه القصصي إلى التزيّد والتكثر في أخباره الحقيقية وإلى التخيل حتى يرضي غروره. ونستطيع أن نرى في قصصه الشعرية براعة في رسم الشخصيات وإدارة الحوار وساعده على ذلك اتصاله بالمجتمع النسائي في عصره وما أتاحه له من فهم نفسية المرأة. والخبرة القريبة بعواطفها وأحاسيسها وما يدور في أعماقها من نزعات وما يسيطر على حياتها من دوافع وأهواء وما يجري على لسانها من عبث ودلال.